الحضارة الغربيّة نحو الانحدار
آراء مفكّرِين غربيّين حول مستقبل الغرب

مريم بلوط *

الأفكار لها تداعيات[1]

هي الجملة الشّهيرة التي ذكرها المؤلِّف الأميركيّ «ريتشارد ويفر» (Richard Weaver) في عنوان كتابه المنشور عام 1948م، والتي اختصرت في رأيه أزمَة تفكُّك الغرب عبر دفع ثمن أفكاره الحداثويّة الدّاعية للقطيعة مع الدّين؛ إذ لا يخفى أنّ فكرة صعود الحضارات وانهيارها ليست غريبة في تاريخ البشريّة، «فهي أشبه بدورة متكرّرة (Cycle)، تتأرجح في مراحلها بين تقدُّم وهبوط»[2]، فتشهد ذروة التّطوّر في الحركة العلميّة والفنّيّة والثّقافيّة وامتداد النّفوذ والثّروة، حتّى تحطّ رحالها في نقطةِ انهيارٍ معيَّنة تؤدّي إلى موتها وبطلان مفاعيلها، إمَّا على الصّعيديْن السّياسيّ والاقتصاديّ، أو الثّقافيّ والرّوحيّ، أو حتّى الانهيار والسّقوط الشّامل لجميع هذه الأصعدة معًا.

هذا يقودنا إلى استحضار السّؤال المفصليّ الذي ظهر في القرن التّاسع عشر مع

---

* باحثة في قضايا الدراسات الإسلاميّة المسيحيّة- لبنان.

1- Richard Weaver, Ideas Have Consequences.

2- cf., Kenneth Minogue, The Appeal of Decline (Review of The Idea of Decline in Western History by Arthur Herman), p. 87.

بـزوغ فجرٍ جديـد لأوروبّـا، وهـو «مـدى اسـتطاعة أسـياد هـذه الحضـارة ومفكّريهـا منـع فكـرة الانهيـار مـن أنْ تطالهـا»[1]، خصوصًـا بعدمـا سـادت فكـرة «الحضارة الخالـدة» إثر وعـود السّـعادة التـي قدَّمتهـا الحداثـة للإنسـان الأوروبّـيّ فـي عالَـم مـا بعـد القطيعـة مـع الدِّيـن، فهـل هـذه الوعـود تحمـل مفعـولًا دائمًـا أم أنّهـا تتَّجـه إلـى بطـلان صلاحيّتهـا؟ هـل هـو محتـوم علـى الحضـارة الغربيّـة أنْ تنحـدر وتتحـوَّل إلـى حضـارة عريقـة ماتـت قصّتهـا فـي تاريـخ الحضـارات؟ أم أنّهـا تتّجـه نحـو عصـر ذهبـيّ أوسـع مـن ذلـك الـذي شـهدته فـي عصـور الحداثـة والتّنويـر؟

هـذه التّسـاؤلات المتعلّقـة بتنبّـؤ سـقوط الغـرب كانـت كلّهـا فعـلًا محـطّ تسـاؤل مفكّـري الغـرب أنفسـهم، إذ اسـتُخدِمت مصطلحـات عـدّة مترادفـة لوصـف هـذه الحالة: الانحـدار (Decline)، الانهيـار (Collapse)، السّـقوط (The Fall)، التّدهـور (Decadence)، والانحـلال (Dissolution). وفـي هـذا السّـياق، يشـار إلـى أحـد أهـمّ الكتـب فـي هـذا المجـال، وهـو مؤلَّـف الكاتـب «آرثـر هيرمـان» (Arthur Herman) (The Idea of Decline in Western History) الـذي يسـرد فيـه جـذور فكـرة الانحـدار فـي تاريـخ الغـرب، ويُبيّـن كيـف أصبحـت النّهايـة الحتميّـة جـزءًا ثابتًـا وقناعـة راسـخة فـي الخيـال الغربـيّ الحديـث؛ إذ تحوّلـت لتصبـح مـا يُسـمّى بـ«التّشـاؤم الثّقافـيّ» (Cultural Pessimism)[2].

مـن هنـا، وفـي ظـلّ كلّ مـا طُـرِح حـول مسـتقبل الحضـارة الغربيّـة، لا بُـدَّ مـن سـؤال: «لمـاذا؟»؛ لمـاذا تُطـرح هـذه الأفـكار التّشـاؤميّة فـي ظـلّ النّجـاح الكبيـر الـذي حقَّقـه الغـرب علـى مسـتوى الفكـر الإصلاحيّ الدّينـيّ، والتّطـوّر الثّقافيّ والعلمـيّ والتّكنولوجيّ، ومسـتوى العيـش الكريـم، والرّفاهيَّـة، والتّفـوّق الاقتصـاديّ، والحكـم السّياسـيّ، وغيرها مِـنَ المكوّنـات التـي تقـوّي ثبـات كلّ حضـارة؟ هـل أخطـأ الغـرب فـي مـكانٍ مـا ضمـن مسـيرته التّطوّريّـة حتّـى أصبـح مُعرَّضًـا للأفـول؟ وهـل مِـنْ طريـق للعـودة أو النّهـوض مُجدّدًا؟

1- Kenneth Minogue, The Appeal of Decline (Review of The Idea of Decline in Western History by Arthur Herman), p. 87.

2- Arthur Herman, The Idea of Decline in Western History, p. 9.
See also: Oliver Bennett, Cultural Pessimism: Narratives of Decline in the Postmodern World.

لمحة تاريخيّة تمهيديّة

لا شكَّ في أنَّ أوروبّا، في تاريخها الحديث، قد شهدت انقلابًا جذريًّا لمجتمعاتها التي كانت غارقة في ظلام القرون الوسطى؛ إذ انتقلت تدريجيًّا لتبصر نور الإصلاح والتّجديد في عصرَيِّ النّهضة والتّنوير اللَّذين تَبِعَهما تحوُّل جوهريّ في الرّؤية الكونيّة لدى الإنسان الأوروبّيّ. ولا يخفى أنَّ المجتمعات الأوروبّيّة لم تكن تحمل منذ البداية طابعًا علمانيًّا أو لا دينيًّا، بل على العكس، كان المجتمع الدّينيّ التّقليديّ هو السّائد في ظلِّ حكم الكنيسة ونفوذها القويّ؛ إذ «غابت فيه قدرة القراءة والكتابة عن عوامِّ النّاس الذين آمنوا بمعتقداتهم وتعاليمهم وطقوسهم من دون تشكيك؛ بل لم يكن السّؤال مطروحًا مِنَ الأساس، على قاعدة أنّ الإيمان كان بديهيًّا آنذاك»[1]. أمّا التّعليم الأساسيّ، فكان متاحًا في جامعات المدارس الأسقفيّة، حيث انطلقت كثير من حركات النّهضة والإصلاح الدّينيّ بقيادة رهبان مسيحيّين أمثال: «روجر بيكون» (Roger Bacon) و«مارتن لوثر كينغ» (Martin L. King).

ولعلّ مِنْ أهمّ ما عُرِفت به النّهضة هو التّمرُّد على الواقع الدّينيّ، فقد طال الانتقاد تعاليم الكنيسة وعَقائدها وممارساتها، وذلك في حرب فكريّة تجديديّة سلاحها القلم ووُجهَتُها الموروث الدّينيّ ككلّ. وقد كان التّحدّي الأكبر للإنسان الأوروبّيّ حينها في انكشاف زَيْف الدّين مقابل معطيات العلم التّجريبيّ المدعوم بالبرهان؛ إذ تكاثرت التّناقضات بين معطيات العلم الحديث ومضمون النّصوص المقدّسة، وبدأت تتبيَّن في الوسط العلميّ عظمة القدرة الإنسانيّة في ظلِّ تضاؤل القدرة الإلهيّة. فها هو «الإنسان يصل باكتشافاته لحافّة الكون من دون الحاجة إلى الله، ويجد تفسيرات علميّة حقيقيّة للظّواهر التي كان يظنّها مِنْ صنع أيدٍ خفيّة غيبيّة»[2].

وقد امتدّ الفكر الإنسانويّ (Humanism) أكثر مع علماء النّهضة الذين شهدت معهم أوروبّا غزارة في الإنتاج الفكريّ والعلميّ، فرفعوا شعار الإنسان، ونادوا بمحوريَّته وقدرته على إمساك زمام حياته من دون حاجة إلى مرجعيّة مُقدَّسة. كذلك، أُعِيدَ إحياء التّراث اليونانيّ القائل «إنّ الإنسان معيار كلّ شيء، وأصبح محور العلوم والآداب والفنون يصبّ في الإنسان، فلا مُقدَّس سواه»[3]. فصار الدّين لا

1- راجع: هنري بولاد، الإيمان وتحدّي الإلحاد، ص 35.

2- راجع: المصدر نفسه، ص 45.

3- المصدر نفسه، ص 36.

يُمثّل سوى مقبرةً للعقل، ومقرًّا لتغلغل الخرافات، ومذبحًا للحرّيّة، وموتًا للإنسان. فإنْ كان ثمَّة سبب أساسيّ لهذه النّهضة فهو في سبيل استرجاع حقّ الإنسان وقيمته ومكانته وكرامته في ظلِّ طمسها لقرون.

هكذا بدأ الشّرخ الكبير بين الإنسان وإيمانه بمنظومة الغيبيّات؛ إذ دخل الإنسان الأوروبيّ في مرحلة انتصار العلم والفلسفة معًا على التّراث الدّينيّ، بحيث أصبحا متربّعَين على عرش الفكر البشريّ. «فمع دخول القرن الثّامن عشر، بدأ الإلحاد بالظّهور بمعناه الفلسفيّ والعلميّ المُمَنهج»[1] كما لم يحصل مِنْ قبل؛ إذ برزت العديد من التيّارات الفلسفيّة التي نطقت كلمتها الفصل حول رؤيتها للإنسان والوجود. وقد سُمِّي الإلحاد الحديث «بالإنسانويّة الملحِدة؛ أي الفكر الذي يبحث عن جوهر الإنسان الذي سلبته إيّاه هيمنة السّموّ الإلهيّ على حياته»[2]. وعلى الرّغم مِنْ تكاثر الآراء والطّروحات حول مفهوم الإله والدّين والإنسان، إلّا أنَّ الإلحاد البارز في ذلك الوقت تميَّز «بعدم تعرُّضِه لوجود الله بحدِّ ذاته بقدر تعرُّضه لعلاقة الله بالإنسان»[3].

طبعًا، هنا يمكن فهم هذه المسألة إذا أُخِذت بالحُسبان الظّروف والبيئة الدّينيّة التي نشأ فيها مُفكِّرو التّنوير. فإذا كان الدّين في تجربتهم مصدر تعاسة الإنسان، وسبب إيمانه بالخرافات، وغرقه بالجهل، وتقييده بشريعة لا يفهمها، وتخويفه بنار الجحيم؛ فسعادته لا يمكن أنْ تتحقَّق إلّا برمي الإله والدّين جانبًا، وإعلان القطيعة معهما، بدل البقاء في لعنة العلاقة التّدميريّة بين الإنسان وإلهه ودوّامتها. وإنْ كان الإله لن يجلب منفعة لصلاح المجتمع والخير العامّ؛ بل يأسر البشريّة في ظلام الجهل والاستعباد، فما الحاجة إليه؟ إذًا، بطبيعةِ الحال سيكون جوهر التّوجّه إلى الإلحاد هو فقدان لبّ المعنى مِنَ الدّين وفاعليّته في تحسين حياة الإنسان نحو الخير الأسمى، فإذا غاب المعنى لا يبقى سببٌ للتّمسّك به، فيذهب الإنسان في رحلةِ بحثٍ عن المعنى بعيدًا عنه.

لذلك، يمكن القول: إنّ انطلاقات الإصلاح الدّينيّ الأوروبّيّ ودوافعه والنّزعة الإنسانيّة لتكريم الإنسان كانت مشروعة؛ بل ضروريّة، خصوصًا إنْ كان الهدف منها

1- Julian Baggini, Atheism: A Very Short Introduction, p. 78.

2- مشير عون، نظرات في الفكر الإلحادي الحديث، ص 5.

3- كوستي بندلي، إله الإلحاد المعاصر، ص 8.

الخوض في مسار طويل مِنَ الإصلاح والغربلة والتّصفية للفكر الدّينيّ. فلا مشكلة أبدًا مع النّزعة الإنسانيّة السّاعية إلى تعزيز الإنسان وتشريفه؛ بل هي حاجة لا يمكن الاستغناء عنها، لكنَّ الوجه السّلبيّ الذي حملته هذه النّزعة هو خيار إقصاء الإله، وتأسيس بداية جديدة للمجتمع الإنسانيّ على هذا الأساس. وهنا تجدر الإشارة إلى أنَّ قضيّة موت الإله، على حدِّ تعبير «فريديريك نيتشه» (Friedrich Nietzsche)، هي أبعد من مجرّد اختفائه من الوجود، أو إقصائه من المجتمع، فالمسألة تكمن بنتائج هذا الموضوع وتبِعاته؛ إذ «لا يمكن تَصَوُّر العالَم الذي يحوي إلهًا مماثلًا للعالَم الذي لا مكان للإله فيه، فهذا يلزم منه تغيُّر النّظرة الكونيّة واختلاف معنى الحياة والالتزامات التي سيعيشها الإنسان»[1].

هنا، لا بُدَّ مِنَ الإشارة إلى أنَّ المرحلة الجديدة التي دخل فيها العالَم الأوروبّيّ بعد قطيعته مع الدّين وتبنّيه العلمانيّة - «مرحلة ما بعد المسيحيّة (Post Christendom)» - اتَّسمت بكثرة الشّكوك حول مدى نجاح هذا المشروع في تحقيق «الأنسنة» المطلوبة. فبعد أنْ كانت النّظريّة الرّائجة تنظر إلى «الدّين على أنّه مريضٌ عاجز ومُحتضِر»[2]، وبعد أنْ صرّحت مجموعة من مُفكّري القرن التّاسع عشر، مثل «ماركس» (Karl Marx) و«دوركهايم» (Émile Durkheim) و«ماكس فيبر» (Max Weber): «أنَّ الدّين مع بداية الحداثة والثّورة الصّناعيّة سيشهد انحدارًا وأفولًا في القرون القادمة»[3]، أصبح الكلام عن مرحلة ما بعد العلمانيّة (Post-Secularism)، بحيث «ظهرت اليوم نتيجة معاكسة تُبيّن مسار العودة إلى الدّين (The Return to Religion) وإعادة إحيائه وانتعاشه (Resurgence of Religion)؛ إذ يلحظ تزايدًا في أوروبّا وحول العالَم، ويشهد تمسُّكًا مِنَ النّاس به كما كان في السّابق، إنْ لم يكنْ أكثر»[4]على حدِّ تعبير عالِم الاجتماع الدّينيّ والمتخصِّص في النّظريّة العلمانيّة «بيتر برجر» (Peter Berger).

1- Stephen BullivanT, Michael Ruse, The Oxford Handbook of Atheism, p. 17.

2- Philip Gorski, David Kyuman Kim, The Post Secular in Question: Religion in Contemporary Society, p. 6.

3- Robert Wuthnow, Studying Religion: Making it Sociological, p. 16.

4- cf., Peter Berger, The Desecularization of the World: Resurgent Religion and World Politics, p. 20.

إذًا، انطلاقًا ممّا سبق، ومن أجل معرفة السّبب خلف نزعة العودة إلى الدّين، لا بُدَّ أوّلًا من فهم الأزمة النّاتجة عن غيابه. من هنا، كانت أهمّيّة التّطرُّق إلى آراء بعض مُفكّري الغرب في هذا المقال، والذين يعزون خطر انهيار حضارتهم إلى «القطيعة مع الدّين» بشكلٍ أساسيّ إلى جانب تسارع الحداثة الصّناعيّة. وسيتبيَّن في ما يلي التّداعيات السّلبيّة لذلك؛ مثل تأليه الإنسان، وتنامي النّزعة الفرديّة، وتفكُّك الأسرة، وغيرها مِنَ الأزمات الأخلاقيّة والاجتماعيّة.

«موريس برمان» وإعادة السّحر للعالَم

ينتقد المؤرّخ الأميركيّ «موريس برمان» (Morris Berman) في مؤلَّفاته العديدة واقع الحضارة الغربيّة المعاصرة، مخصّصًا الكلام أكثر عن التّدهور الأميركيّ بسبب هبوط المستوى الأخلاقيّ والفنّيّ والثّقافيّ فيها، هذا عدا عن تأثيرات هيمنتها السّياسيّة العالميّة، فهو يدعو الحضارة «الأميركيّة إلى الكفِّ عن التّبجّح في وصفِ حضارتها وقوّتها الاقتصاديّة وهيمنتها السّياسيّة والثّقافيّة، واللّجوء إلى الواقعيّة بأنّها حضارة استهلاك في سلك الهبوط»[1].

يتطرَّق «برمان» إلى جذور المشكلة الغربيّة المعاصرة في كتابه «إعادة السّحر إلى العالَم» (The Reenchantment of the World)، وهو مصطلح يُقابل ما وصفه «ماكس فيبر»: «فكّ السّحر عن العالَم» (Disenchantment)؛ إذ يرى أنَّ الحضارة الغربيّة اليوم في أزمة، وقد جرَّتِ العالَم معها إلى ذلك، وأنَّ «جذور هذه الأزمة ليست سوء سياسة اقتصاديّة أو اجتماعيّة فحسب؛ بل هي ذات بُعدٍ معرفيّ إبستيمولوجيّ، وهي أزمة «معنى» عائدة إلى الثّورة العلميّة الحاصلة منذ القرن السّادس عشر»[2].

ويُفَصِّل في التّطرُّق إلى طبيعة هذه الأزمة المعرفيّة عبر شرح معنى أنْ يكون الإنسان «مسحورًا»؛ أي أنّه واعٍ لكلّ تفاصيل الوجود من حوله، «فيكون في حالة اندهاش أمام عظمة الأشجار والصّخور والأنهار والغيوم، ويراها على قيد الحياة؛ أي باختصار، تكون الطبيعة مكانًا لانتماء الإنسان، فلا يشعر بالاغتراب، وإنَّما

1- راجع: موريس برمان، انحطاط الحضارة الأميركيّة، ص 7.

2- Morris Berman, The Reenchantment of the World, p. 12.

يعي العلاقة بينه وبين الكون، والتي تعطيه معنى لحياته»[1]. وهذا ما يُسمّيه بالوعي المُشارِك (Participating Consciousness)؛ أي الاشتراك «في العالَم» وفي عمليّة الإدراك والتّأمُّل، مقابل حالة الانفصال والاغتراب عن الوجود.

أمّا حالة فكّ السّحر، فهي تعني أنْ يكون الإنسان «مراقِبًا مغتربًا» (Alienated Observer)، غير مشارك «في العالَم» وغير مدرك لعلاقته مع الكون[2]. فتُستبدَلُ حالة الوعي والاندهاش و«السّحر» بالقراءة الظّاهريّة الميكانيكيّة للطّبيعة، القائمة على المحاكمة الذّهنيّة العقلانيّة، والتي لا تُجسِّد أيّ ترابط بين المراقِب (observer) (الإنسان) والمُراقَب (observed) (الكون). «فلم تعد الطّبيعة مخبأ لأسرار الوجود والحضور الإلهيّ؛ بل مجرّد عالَم محكوم وفاق قوانين طبيعيّة ماديّة واضحة»[3]. ويؤكّد «برمان» أنَّ الإنسان في هذه الحالة يختبر «المرض الرّوحيّ (Soul Sickness)، بسبب فقدانه للبُعد الوجدانيّ والمعنويّ مع الكون وعالَم ما وراء الطّبيعة والحضور الإلهيّ، فيشعر أنَّه مجرَّد كائن مادّيّ فاقد للمعنى، يعيش حالة «الميكانيكيّة» و«الشّيئيّة»، ولا مبالاة الكون تُجاهه»[4].

إنَّ هذه العقليّة، برأي برمان، «قد أدخلت العالَم الغربيّ على وجه الخصوص في أزمة اكتئاب»[5]، وفقدان العلاقات الإنسانيّة الصّادقة. ويُرجع السّبب مجدّدًا إلى تاريخ النّهضة العلميّة والحداثة التّكنولوجيّة التي قلبت أسلوب حياة الإنسان الغربيّ ومنهجه المعرفيّ رأسًا على عقب، فصار ضحيّة العلاقات السّطحيّة، والتّحلّل الأخلاقيّ، وثقافة الاستهلاك والاستبدال، وغيرها مِنَ الأزمات الاجتماعيّة والرّوحيّة.

إنَّ هذا الموقف التّشاؤميّ، خصوصًا تُجاه تأثيرات الحداثة والتّكنولوجيا، كان متفشِّيًا بين مفكّري الغرب، أمثال «روسو» (Jean-Jacques Rousseau) و«هيردير» (Johann Herder) و«هايديغر» (Martin Heidegger) و«هوسرل» (Edmund Husserl)، الذين تبنّوا النّقد اللّاذع لخطورة التّطوّر الصّناعيّ وتأثيره

1- Morris Berman, The Reenchantment of the World, p. 13.

2- Ibid, p. 12.

3- Ibid.

4- cf., ibid, p.13.

5- cf., ibid, p.18.

على تديُّـن الإنسـان المعاصـر، في ظـلِّ «تفشّـي العقلانيّـة البـاردة التي تمتـصّ الحيـاة مـن الإنسـان في عواطفـه وروحانيّتـه»[1].

وهنـا، يمكـن القـول: إنَّ جـزءًا مـن أزمـة الإنسـان المعاصـر تكمـن فـي اختبـاره «اللّامعنـى» مـن دون التّيقّـظ لذلـك أساسًـا، فهـو غافـل عـن غفلتـه على حـدِّ تعبيـر «هايديغـر»، وفاقـد «للتّنبّه ـ الوعـي الذّاتـي»[2]. فالحداثـة قدّمـت رؤيـة كونيّـة بديلـة عـن الرّؤيـة الدّينيّـة، وصاغـت مـن جديـد أجوبـة لأسـئلة الإنسـان الوجوديّـة حـول المعنـى (مِـنْ أيـن؟ في أيـن؟ وإلى أيـن؟)، لكـنَّ المشـكلة لـم تعـد فقـط في تغييـر الأجوبـة؛ بـل في محـو السّـؤال مِـنَ الأسـاس. وهـو المعنـى الحرفيّ لغفلـة الإنسـان عـن غفلتـه، وغيـاب التّنبّـه الذّاتـيّ الـذي وصفـه «هايديغـر»؛ فإيقـاع الحيـاة العصريّـة إلى حـدٍّ مـا قـد شـغل نسـبة كبيـرة مـن البشـر عـن التّيقّـظ أصـلًا لوجـود هـذه الأسـئلة؛ إذ «أصبـح الإنسـان ملتصقًـا بـالأرض، فلـم يعـد يعـرف لـون السّـماء»[3]. وأصبـح اليـوم أكثـر عرضةً لِأنْ يشـبه الآلـة الخاليـة مِـنَ الـرّوح في تحرّكاتـه، فيكـون الميـل إلى التّديُّـن والتّجربـة الرّوحيّـة تحدِّيًـا في ظـلِّ هـذه الظّـروف، مـن دون أنْ يعنـي ذلـك حتميّـة تدهور الإنسـان في زمـن الحداثـة والتّطـوّر التّكنولوجـيّ. فـلا يمكـن غـضّ النّظـر عـن إيجابيّاتهـا التـي لـم تكـن بالضّـرورة سـببًا لتشـتيت التّديّـن أو لفقـدان الرّوحانيّـة عنـد كثيريـن؛ بـل قـد تـؤدّي إلى مفعـول معاكـس عندهـم. فليـس كلّ مَـن انشـغل بالمادِّيّـات بحكـم حياتـه اليوميّـة واختبـر العصـر التّكنولوجـيّ يصبـح فاقـدًا لذاتـه. إلّا أنَّ الـكلام يصِـبّ فـي كـون العالـم المعاصـر ـ وخصوصًـا الغربـيّ على حـدِّ تعبيـر «برمـان» ـ يُشـكِّل عامـلًا مسـاعدًا للانغمـاس فـي البُعـدِ المـادِّيّ أكثـر مِـنَ الرّوحـيّ أو الميتافيزيقـيّ. مـن هنـا كانـت دعـوة «موريـس برمـان» «لإعـادة السّـحر إلى العالَـم»، بمعنـى إعـادة إدراك الإنسـان لوجـود قـوّة أعلى منـه تُلهمـه للسّـير مجـدّدًا في مسـار روحـيّ تنبّهـيّ ومعنـويّ غيـر انحطاطـيّ.

1- Edward Luttwak, From Homer to the Unabomber: Declinists across the Ages, p. 153.

2- Martin Heidegger, The Question concerning Technology and Other Essays, p. 27.

3- إغناطيوس عبده خليفة، الإيمان المسيحي وإلحاد اليوم، ص 334.

«ألفن توفلر» وصدمة الموجة الثّالثة

في سياق الحديث عن الحداثة التّكنولوجيّة، يُستَحضر كلام الكاتب الأميركيّ «ألفين توفلر» (Alvin Toffler)، الرّائد في نقده الحادّ للمجتمع الصّناعيّ، والذي كرّس كتابات كثيرة حول مستقبل البشريّة، يصف فيها السّمّ القاتل للعصر المعلوماتيّ. وقد ذكر في أبرز مؤلّفاته «صدمة المستقبل» و«بناء حضارة جديدة»، أنّ المجتمع الغربيّ عاش خلال القرون الثّلاثة الماضية وسط عاصفة ناريّة مِنَ التّغيير من دون أنْ تهدأ؛ بل تجمع قواها لهبّة أشدّ عنفوانًا، «فهي تستولد شخصيّات شاذّة: أطفالًا في الثّانية عشرة لا يبدون أطفالًا، ورجالًا في الخمسين يبدون كأطفال في الثّانية عشرة»[1].

كذلك، يُشدِّد على أنَّ «كلّ الجذور القديمة الثّابتة؛ مثل الدّين والأُمَّة والمجتمع والأسرة والمهنة، تهتزّ الآن كلّها بقوّة تحت التّأثير العاصف لدفعة التّغيير المتسارعة»[2]. ويُفسِّر هذا التّغيير الجذريّ عبر تقسيم تاريخ البشريّة إلى ثلاث موجات[3]:

الموجة الأولى: حين كان المجتمع زراعيًّا (دامت بين 8000 قبل الميلاد وعام 1750).

الموجة الثّانية: بعد اندلاع الثّورة الصّناعيّة في أوروبّا.

الموجة الثّالثة: بدأت منذ عام 1955، المتجسِّد بعصر التّكنولوجيا.

ولشدّة إيمانه بخطورة الموجة الثّالثة، يرى «توفلر» أنَّ قواعد الصّراع في العصر الحاليّ قد تغيّرت، فالصّراع الأساسيّ في نظره «لا يقوم بين الإسلام والغرب، ولا بين الغرب وبقيَّة العالم على نحو ما أشار إليه «صاموئيل هنتينغتون» (Samuel Huntington)، كما أنّنا لا نصل إلى نهاية التّاريخ بحسب «فوكوياما» (Francis Fukuyama)؛ بل شكل الحضارات العالميّة اليوم قد تغيَّر، ذلك أنّنا نتقدَّم باتّجاه بُنَى للسّلطة مختلفة تمامًا، ستخلق عالمًا منقسمًا، لا بين حضارتَيْن، بل بين ثلاثة متضادّة؛ الأولى تظلّ موسومة بسمتها الرّيفيّة، والثّانية تتمثَّل باليد العاملة

1- ألفن توفلر، صدمة المستقبل، ص 10.

2- المصدر نفسه، ص 36.

3- راجع: ألفن توفلر، ، بناء حضارة جديدة، ص 33.

الرّخيصة والصّناعة، وتتميَّز الثّالثة بأنَّها معلوماتيّة»[1]. وهذه بدورها هي المؤثِّرة في انقلاب كلّ البنى الاجتماعيّة والأخلاقيّة في الغرب، خصوصًا لكونه الأكثر تقدّمًا في التّطوّر الصّناعيّ.

إنَّ من أهمّ ما ينتقده «توفلر» في كتاباته هو تفشِّي ثقافة الاستهلاك المادّيّة التي ولَّدت بدورها ثقافة الاستباليّة (Replaceability)، وعادة «التّخلّص مِنَ الأشياء»[2]؛ إذ أصبح الإنسان المعاصر يستخدم كثيرًا مِنَ المنتجات التي يرميها بعد الاستعمال لمرّة واحدة، أو سرعان ما تنتهي صلاحيّتها. هذا عدا عن التّطلّع دائمًا إلى التّجديد في الجودة وانتظار التّحديث (Update)، خصوصًا في التّقنيّات التّكنولوجيّة، فلم يعُد الشّخص يكتفي بالموجود، وأصبح غارقًا في حالة «عدم الرّضى»، وهو سبب آخر لتعاسة الإنسان المعاصر وكآبته.

هنا، يشار إلى أنَّ التّأثير السّلبيّ لهذه العقليّة قد تسلَّل إلى مصداقيّة العلاقات الاجتماعيّة بين البشر، فالاستباليّة «تتضمَّن تقاصرًا في علاقة الإنسان بالأشياء؛ أي عوض أنْ نبقى مرتبطين بشيءٍ واحدٍ لمدّة طويلة نسبيًّا، إنَّنا نرتبط لمدّة قصيرة بعدد متتابع مِنَ الأشياء البديلة له»[3]، وهكذا يبقى الإنسان في دوّامة غير متناهية مِنَ الرّغبات التي لا تشبعه. وقد أصبح هذا المرض الفكريّ سببًا رئيسًا في تفكُّكِ الأُسَر اليوم؛ إذ لم يعُد الشّريكان يَرضيان ببعضهما، فأصبح الرّجل في حالة ترقُّب التّغيير والتّحديث (Update) مِنْ شريكته، كما أنَّه قد يستسهل وجود خيارات ونماذج أفضل مِنَ النّساء -خصوصًا بعد تحرُّر المرأة وتسليعها جنسيًّا- فلا يمانع استبدال شريكته بامرأة أخرى، وإنْ لم يُوَفَّق مع هذه الأخيرة فإنَّه يستبدلها بنساء أُخريات، ليبقى في دوّامة الاستبدال. والعكس صحيح، فقد أصبح سهلًا على النّساء استبدال شريكها بغيره، وكذا الحال في علاقات الصّداقة، من دون إعطاء أيّ قيمة لحُسن المعاشرة الطّويلة أو تقدير للعلاقة المعنويّة ببُعدها الإنسانيّ الصّادق. ولا يخفى أنّ هذه الدّوّامة بدورها تجرّ الإنسان إلى عدم الاستقرار النّفسيّ، وتاليًا توليد الاكتئاب.

من هنا، يُخصِّص «توفلر» كلامًا حول خراب الأُسَر وتسليع المرأة في الغرب،

1- ألفن توفلر، ، بناء حضارة جديدة، ص 29.

2- ألفن توفلر، صدمة المستقبل، ص 51.

3- المصدر نفسه، ص 54.

رابطًا ذلك بعوامل عدّة، أهمّها: التطوّر الصّناعيّ، الثّورة الجنسيّة الحاصلة في السّتّينيّات مِنَ القرن الماضي التي تَحدَّت التّقاليد الرّاسخة حيال الجنس، الأدوار الجنسيّة والعلاقات الزّوجيّة بالذّات. فقد أدَّت هذه الثّورة، مع ظهور حبوب منع الحمل، إلى تغييرٍ واسع في المعايير والقيم الاجتماعيّة وتحويل في المواقف المجتمعيّة. «وقد أُطلِق عليها اسم «الحبّة» (The Pill) لِما لها من مفعول سحريّ وتغييريّ؛ إذ خلقت حرّية أكبر في قبول الجنس قبل الزّواج، واستخدام وسائل منع الحمل»[1]. فهذا الدّواء سمح للنّساء أن يتحكَّمْنَ بشكلٍ أفضل في خياراتهنَّ الإنجابيّة، وأنْ يتجرّأنَ أكثر في التّوجّه إلى ممارسة الجنس قبل الزّواج من دون أنْ يُفتضح أمرهنَّ بالحمل؛ بل حتّى المرأة المتزوّجة أصبحت قادرة على إخفاء هذه الفضيحة عن مجتمعها في حال أقدمت على الخيانة.

كانت الحياة التّقليديّة والاجتماعيّة المحافظة قد بدأت تتغيّر في تلك المدّة، بعد توسّع الحرّيّة الجنسيّة وحرّيّة اللّباس للمرأة، وانتشار المجلّات الإباحيّة، لكن مع ذلك يرى «توفلر» أنَّ «السّبب الأكبر لكلِّ هذه الأزمات هي الثّورة الصّناعيّة بشكلٍ خاصّ، فقبل هذه المرحلة كانت الأُسرة كبيرة العدد، وكانت الحياة تدور حول البيت»[2]، و«الأُسرة كمؤسّسة قويّة لم تبدأ في التّدهور مع «دكتور سبوك»[3] (1903 ـ 1998م) (Dr. Benjamin Spock) أو ظهور «مجلّة بلاي بوي» الإباحيّة (Playboy) فقط؛ بل أيضًا عندما جرّدت الثّورة الصّناعية الأسرة مِن معظم الوظائف التي كانت تتولّاها، فانتقل العمل إلى المصنع أو المكتب، وذهب المرضى إلى المستشفيات والأطفال إلى المدارس والمُسنّون إلى دُور الرّعاية. فبعد خروج هذه المهمّات كلّها مِنَ البيت، لم يبقَ سوى أُسرةٍ مُفكّكة تعيش حياتها في خارج المنزل من دون أنْ يترابط أفرادها في شيءٍ مِن هذه الأعمال التي كانوا

1- cf., Rebecca Roberts, Women: Our History, p. 191.

2- راجع: ألفن توفلر، بناء حضارة جديدة، ص 110.

3- دكتور بنجامين سبوك، طبيب أطفال أميركيّ اكتسب شهرة واسعة عالميًّا بسبب تأليفه كتاب «الطّفل ورعاية الأطفال» (Baby and Child Care) عام 1946م. وقد نظّر لأفكار تربويّة عن الأمومة عُدّت في ذلك الزّمن خارج التيّار، ممهِّدةً لثورة في وجه التّربية التقليديّة. ما ساهم في تشجيع النّساء أكثر للمشاركة في سوق العمل، والذي بدوره أثّر في تركيبة الأسرة ومستقبلها.

يقومون بها سويًّا»[1]. هذا عدا عن توسّع العلاقات الاجتماعيّة لكلّ مِنَ الزّوجين، وتاليًا تزايد احتماليّة «استبدال الشّريك» بسبب توافر خيارات أفضل.

يمكن القول، إذًا، أنَّ «الأسرة الممزَّقة»، كما يُسمّيها «توفلر»، كانت من أهمّ المواضيع التي تصدَّرت كتاباته، وخصوصًا في المجتمع الأميركيّ. كما أنَّه تطرَّق إلى العديد مِن سيّئات الموجة الثّالثة على المستويات السّياسيّة والاجتماعيّة والنّفسيّة، كما توسَّع في الحديث عن مدرسة هوليوود الأخلاقيّة، وأزمة التّمدّن، ونهاية التّكنوقراطيّة، وغيرها من المواضيع المرتبطة بأزمة الغرب المعاصر. إلّا أنَّ الكلام عنها لا يسعه هذا البحث.

انحدار الغرب في فكر «ريتشارد ويفر» و«سيريل جود»

لم يكن «برمان» الوحيد الذي تطرَّقَ إلى التّأثيرات السّلبيّة للقطيعة مع الدّين، كذلك لم يكنْ «توفلر» الرّائد الأوّل في نَقدِ التّكنولوجيا المؤثّرة في خراب الأُسرة وهشاشة العلاقات الاجتماعيّة المعاصرة، فقد سبقه إلى ذلك جملة من كبار مفكّري الغرب الذين تشاركوا فكرة «الانحدار». ولعلَّ مِن أشهر الكتب التي لاقت شهرة واسعة في العالم الغربيّ في منتصف القرن العشرين هو كتاب «الأفكار لها تداعيات» (Ideas Have Consequences) لمؤلّفه الأمريكيّ المؤرّخ «ريتشارد ويفر» (Richard Weaver)، وكتاب «التّدهور: نظريّة فلسفيّة» (Decadence: A Philosophical Inquiry) لمؤلّفه الفيلسوف الأميركيّ «سيريل جود» (Cyril Joad).

اللّافت في الموضوع، أنَّ «كِلَا الكتابَين قد صدرا في السّنة ذاتها عقيب الحرب العالميّة الثّانية، سنة 1948م، ولم يكن الكاتبيْن على معرفة مسبقة ببعض»[2]. لقد كان هدف التّأليف واضحًا ومشتركًا، وهو محاولة تحليل جذور الأزمة الأخلاقيّة للحضارة الغربيّة، خصوصًا في ظلِّ صدمة العالَم مِن نتائج الحرب العالميّة وإفلاس الضّمير الذي توصَّلت إليه. وقد كان مِنَ الواضح أنَّ هذه الظّروف لم تظهر فجأة في منتصف القرن العشرين، وتاليًا، فإنَّ السّؤال الذي انخرط فيه

1- راجع: ألفن توفلر، بناء حضارة جديدة، ص 110.

2- J.F. Johnston, C.E.M. Joad, Richard Weaver and the Decline of Western Civilization, p. 226.

«جود» و«ويفر» بعد الحرب العالميّة الثّانية هو «ما إذا كان ثمّة شيء في تاريخ الأفكار يمكن أن يساعد في تفسير هذا الانهيار الظّاهر في القِيَم التي كانت مركزيّة للثّقافة الغربيّة»[1].

ولعلّ «ويفر» قد اختصر تنبّؤه بنهاية الغرب في الجملة السّابق ذكرها «الأفكار لها تداعيات»؛ إذ يوجّه بذلك نقدًا للإنسانويّة الملحدة التي نادت بإقصاء الإله والقطيعة مع الدّين، وللأفكار اللّيبراليّة التي حرَّرت الإنسان مِن قيود الأخلاق، ويعدّها سبب تعاسة مجتمعهم. بمعنى آخر، يريد القول «إذا أردتم تبنِّي هذه الأفكار فتحمّلوا نتائج الانهيار بموت حضارتكم». وهنا لا بُدَّ من الإشارة إلى أنَّ كلًّا مِنْ «جود» و«ويفر» قد تكلَّم عَنِ الجانب المظلم مِنَ الحداثة الغربيّة عام 1948م، ووصَفَ نتائجها المدمِّرة أخلاقيًّا واجتماعيًّا ونفسيًّا، إلّا أنَّ تداعياتها ازدادت سوءًا بعد منتصف القرن العشرين، حتّى أنَّ الضَّرر الحقيقيّ سيحتاج إلى قرنٍ آخر أو أكثر كي يظهر بشكله الكامل. من هنا، يمكن تلخيص أبرز التّداعيات التي تطرَّق إليها كلّ مِنَ المفكّرَين على الشّكل التّالي:

1. تجزئة العالم والفلسفة الاسميّة:

إنَّ مفهوم التّجزئة يمكن تشبيهه بما فسَّره «ماكس فيبر» عن حالة فكّ السّحر؛ أيّ عندما يكون الإنسان منفصلًا عن العالم من دون أنْ يشعر بالتّرابط معه. ويصف «ويفر» معنى (Fragmentation) أنَّها «الحالة التي تكون رؤية الإنسان للوجود مُجزّأة ومادّيّة، فلا ينظر إلى العالم بصورة واحدة تترابط فيها كلّ أجزائه وعناصره، وإنَّما يراها قطعًا متناثرة غير مربوطة بهدف أسمى»[2] أو ببُعد ميتافيزيقيّ معنويّ. وهذه الرّؤية، بحسب «سيريل جود»، قد «دمّرت المجتمع الغربيّ، والسّبب في تفشّيها يعود إلى خطأ فلسفيّ قديم يمكن تعقُّب جذوره في القرن الرّابع عشر مع صعود الفلسفة الاسميّة (Nominalism)»[3] - مقابل الواقعيّة (Realism) -. وقد توسَّع في تفصيل آثار هذه المدرسة الفلسفيّة في تحليله للأزمة الرّوحيّة والأخلاقيّة

1- J.F. Johnston, C.E.M. Joad, Richard Weaver and the Decline of Western Civilization, p. 226.

2- John, Lewis, Ideas and Consequences Science & Society, p. 68.

3- J.F. Johnston, C.E.M. Joad, Richard Weaver and the Decline of Western Civilization, op.cit. p. 234.

في الغرب، وكانت مقاربته أعمق من مقاربة «ويفر». لذلك، تميَّزَ عن غيره من المفكِّرين المتنبِّئين بسقوط الغرب في موقفه الحاسم من «الاسميّة» بوصفها سببًا رئيسًا للانهيار الحضاريّ الغربيّ.

ومن جملة ما ذكره حول هذه الفلسفة أنَّها لا تعترف بوجود حقائق ومفاهيم كلّيّة؛ بل تُعدّ مجرَّد أسماء يخلقها الذّهن البشريّ للأشياء الجزئيّة، وهذه الأجزاء وحدها هي الموجودة حقًّا. تُعَدّ هذه المدرسة من أوائل الاتّجاهات المادّيّة في القرون الوسطى، وهي التي أنتجت، في رأي المؤلّفَين «جود» و«ويفر»، المشاكل في صدق العلاقات الإنسانيّة. «فعند رفض المفاهيم المجرَّدة والكلّيّة، وصبّ التّركيز فقط على الجزئيّات بوصف كلّ منها حالة فرديّة مستقلّة، حينها تكون العلاقات معرَّضة لأنْ تُختصر بالظّاهر، وتكون سطحيّة عاجزة عن الدّخول في العمق»[1]. فإذا كانت كلّ حالة فريدة بذاتها من دون وجود مشتركات جوهريّة؛ فإنّ ذلك قد يؤدّي إلى صعوبة في فَهم البشر لبعضهم، وفي إيجاد معانٍ وقِيَم وأرضيّة مشتركة في علاقاتهم. وعندما نتكلّم عن خطر سطحيّة العلاقات، فهذا يعني تزايد النّزعة الفرديّة التي تجد صعوبة في إيجاد ارتباط معنويّ أو وجوديّ متّصل مع غيرها. وعند فقدان القدرة على رؤية المشتركات، سيستسلم الإنسان لفكرة أنَّ الآخر لا يشبهه في شيء، ما قد يفتح الأبواب لإلغائه والعدائيّة تُجاهه، والشّعور بالاغتراب حتّى مع أخيه الإنسان.

في السّياق، تجدر الإشارة إلى أنَّ اختصار الوجود بالجزئيّات يُعرّض الإنسان لخطر الهَوَس بهذه الأجزاء المادّيّة، لدرجة غرقه فيها، فيكون «محتجزًا في دوّامة التّعلّق بما لا يدوم»[2]، خاسرًا نفسه فيها. من هنا، ينتقد كلّ من «جود» و«ويفر» الرّؤية المادّيّة للكون المنفصلة عن أيّ بُعدٍ غيبيّ، والذي يحصر الوجود بقراءة تجريبيّة رقميّة حسّيّة. وعليه، يُحدّد المؤلِّف أنَّ مشكلته ليست في اهتمام الإنسان بعالم الطّبيعة؛ بل على العكس، فإنَّ «العلم (Science) - على حدّ تعبيره- يُعلّمنا الانضباط والموضوعيّة والدِّقّة في أفضل صورها وأرقاها، ويُعلّمنا أيضًا التّواضع والتّقديس والإعجاب أمام التّعقيدات الرّائعة للكَوْن. لكن، ما اشتكى منه «ويفر»

1- cf. J.F. Johnston, C.E.M. Joad, Richard Weaver and the Decline of Western Civilization, p. 231.

2- Richard Weaver, Ideas Have Consequences, p. 59.

هـو العلمويّـة (Scientism) التـي تؤمـن أنَّ العلـوم الطّبيعيّـة هـي الطّريقـة الوحيـدة لمعرفـة الحقيقـة»[1].

2. النّزعة الفرديّة وتورّم الأنا:

لعـلَّ مِـنْ أهـمّ شـعارات النّهضـة الأوروبيّـة هـي تحويـل المركزيّـة مِـنَ اللـه إلـى الإنسـان؛ أي إعطـاء الأولويّـة لكرامـة الإنسـان وراحتـه وسـعادته، فيكـون هـو صانـع القـرار والأعلـم بمصلحتـه. وطبعًـا، فـي الرّؤيـة الدّينيّـة يُعَـدّ الإنسـان محـور الوجـود؛ بـل أشـرف المخلوقـات، لكـن ليـس بمعـزل عـن الحضـور الإلهـيّ. ولذلـك، يـرى كلا المؤلّفَيـن أنَّ خطـورة الاسـتغناء عـن المرجعيّـة الإلهيّـة، ضمـن الرّؤيـة الإنسـانويّة فـي شـقّها المتطـرّف، قـد جعـل الإنسـان يُخطئ في تقييـم مصلحتـه؛ إذ لا يمكـن للعقـل أو الضّميـر وحـده أنْ يحكـم دائمًـا بالموقـف الصّحيـح، خصوصًـا إنْ تغلّبـت عليـه العاطفـة فـي بعـض المواقـف. ولذلـك، أشـارا إلـى أنَّ الإنسـان إنْ أُوكِل لمشـاعره وأهوائـه سـيكون فـي خطـر التّدهـور القيمـيّ والانحـلال الأخلاقـيّ، وهـو مـا حـلَّ بالمجتمـع الغربـيّ نتيجة إقصائـه للدّيـن.

فـي هـذا السّـياق، «يصـف «جـود» شـباب جيلـه بأنَّهـم فارغيـن مِـنَ الجـذور الرّوحيّـة (Spiritually rootless)؛ إذ كانـت القِيَـم المسـيحيّة فـي القـرن العشـرين قـد سـلكت طريـق التّدهـور بسـبب تنامـي الأفـكار العلمانيّـة واللّادينيّـة حينهـا»[2]. وهـذا الـكلام فـي منتصـف القـرن العشـرين، أمَّـا اليـوم، فتـكاد تكـون هـذه الصّـورة منتشـرة بشـكل أكبـر. فاليـوم، يمكـن القـول إنّ المجتمـع الغربـيّ المسـيحيّ علمانـيّ فـي الممارسـة أكثـر مِـن كونـه مسـيحيًّا، وهـو مـا يُسـمَّى «بحالـة الإلحـاد العملـيّ[3] (Practical Atheism)؛ فبـات الإنسـان يؤمـن بوجـود إلَـه مـن دون أنْ يُفعِّـل إيمانـه فـي الحيـاة، فيكـون أسـلوب حياتـه خاليًـا مـن مظاهـر الإيمـان، وتحـوي سـلوكيّاته نوعًـا

1- J.F. Johnston, C.E.M. Joad, Richard Weaver and the Decline of Western Civilization, p. 232.

2- Ibid, p. 234.

3- هـذا النّـوع مِـنَ الإلحـاد لا يقتصـر فقـط علـى المجتمعـات الغربيّـة؛ بـل نجـده أيضًـا فـي أماكـن أخـرى مِـنَ العالـم ومِـنْ ضمنهـا المجتمعـات الإسـلاميّة. فليـس كلّ مَـن يؤمـن بإلَـه ويعتنـق ديانـة معيّنـة يلتـزم بتعاليمهـا. ولذلـك، فـإنَّ الحالـة «اللّادينيّـة» -إنْ صـحّ التّعبيـر- قـد طالـت أماكـن أخـرى فـي العالـم، إلّا أنّهـا الأكثـر بـروزًا فـي الغـرب لِما لهـا مـن ارتبـاط جـذريّ بالتّحوّلات الحاصلـة فـي التّاريـخ الأوروبـيّ الحديـث تُجـاه العلاقـة مـع الدّيـن.

من اللّامبالاة، فيتصرّف وكأنَّ الله غير موجود»[1]. إذًا، هو «ليس إلحادًا فلسفيًّا أو نظريًّا بمعنى إنكار وجود الله، بل هو متعلِّقٌ بأسلوب حياة المؤمن باللّه»[2] ومدى ارتباطه علائقيًّا وتطبيقيًّا به.

إنَّ هذا الإلحاد العمليّ في مجتمع فاقِد للرّوحانيّة، والذي سلك طريق الانحلال الأخلاقيّ على حدِّ تعبير «جود»، «ناتج عن غياب مصدر قِيَمِيّ ميتافيزيقيّ ثابت، وهو يشير بذلك إلى الإرشاد السّماويّ الإلهيّ؛ إذ يؤمن بضرورة وجود نظام حقيقيّ يحفظ الكينونة البشريّة، ويحوي قِيَمًا موضوعيّة (Objective)، بمعنى كونها مستقلّة عن الشّخصانيّة البشريّة (Subjectivism)؛ أي غير خاضعة للرّغبة والمشاعر والعواطف»[3]. فهو يدافع عن منظومة أخلاقيّة غير مُتغيِّرة وغير بشريّة الصّنع لِما في ذلك من خطر الانزلاق في طريق الأهواء.

إذًا، ثمّة تشديد في كتابات المؤلّفين على أنَّ التّنوير الأوروبّيّ قد أقنع الإنسان أنَّه قادر على تأسيس رؤيته الكونيّة حصرًا بمساعدة عقله من دون أيّ وسيط آخر، وأنَّه المصدر الوحيد للقِيَم، وهذا ما يجعل الأنسنة -بمفهومها الإقصائيّ للإلَه- النّواة الجوهريّة لبدء مرحلة الانهيار. فالخطاب الذي يُشدِّد على عظمة القدرة البشريّة، وتنصيب الإنسان سيّد نفسه -بمعنى انفصاله عن الله-، هو خطاب تمرّديّ نابع عن تورُّم الأنا، وقد ظهرت هذه النّقطة بشكلٍ جليّ في كتابات «جود» و«ويفر»، خصوصًا في مسألة الأنا العلميّة والتّكبّر العلميّ. وأنَّ هذا الحبّ للأنا قد ولَّد بدوره أزمات نفسيّة وأخلاقيّة واجتماعيّة، منها تنامي الفرديّة واللّامبالاة تُجاه الآخر. وقد مرَّ الكلام عن سيّئات الفلسفة الاسميّة التي تختصر الوجود بالحالات الفرديّة، وتأثير ذلك على توليد علاقات إنسانيّة سطحيّة تجهل الآخر، وتاليًا تُعاديه. وفي خصوص هذه النّقطة يتوجَّه الفيلسوف «إيمانويل ليفيناس» (Emmanuel Levinas)، المعروف بفيلسوف الغيريّة، بنقدٍ لاذع للأخلاق الغربيّة، خصوصًا في مسألة تورّم الأنا[4] التي عدّها

1- هنري بولاد، الإيمان وتحدّي الإلحاد، ص 20.

2- المصدر نفسه.

3- J.F. Johnston, C.E.M. Joad, Richard Weaver and the Decline of Western Civilization, op.cit., p. 228.

4- cf., Emmanuel Levinas, Collected Philosophical Papers, p. 12.

مـن منجـزات الحداثـة السّـلبيّة؛ إذ يـرى أنّهـا ولّـدت عدائيّـة مفرطـة تُجـاه الآخـر، مـا يجعلنـا نسـتحضر ظاهـرة الرّجـل الأبيـض الأوروبّـيّ المسـتعمِر الـذي يجـد حضارتـه أفضـل مـن الحضـارات كلّهـا، «فأفـرط في إلغائهـا واسـتعمارها وفشـل في الاعتـراف بالتّعـدّد الثّقافـيّ»[1].

3. غياب فضيلة التّقوى وتهذيب النفس:

إنَّ مصطلـح «عبـادة الرّاحـة»[2] (Comfort Worship) هي الجملة التي يسـتخدمها «ويفـر» ليُعبّـر عـن حالـة التّخديـر التـي تُصيـب الإنسـان أمـام الملـذّات المادّيّـة، فـلا يألـف معنـى الانضبـاط. ويصفـه «بالولـد المُدلَّـل الـذي فَقَـدَ قدرته على التّفكيـر، والذي لا يسـتطيع أنْ يـرى الرّبـط بيـن الجهـد والثّـواب»[3]. فـلا يخفـى أنَّ الطّبيعـة الإنسـانيّة ميّالـة للرّاحـة وتجنّـب الجهـد، إلّا أنّهـا في الوقـت ذاتـه تسـتطيع التّغلّـب على ذلـك عبـر الالتـزام بالمسـؤوليّة، وفضيلـة «تهذيـب النّفـس والانضبـاط (Self-Discipline)»[4]. فالمعيـار الـذي يجـب أنْ يحكـم تصرّفـات الإنسـان وأفعالـه هـو علمـه بعواقـب الأمـور، وتحديـد إنْ كانـت الغايـة النّهائيّـة لفعـلٍ مـا تسـير فـي مصلحتـه أم لا. وهنـا يصـف «ويفـر» أزمـة تنبثـق عـن الفكـر المـادّيّ، وهـي «التّركيـز على السّـعادة الآنيّـة، والسّـعي إلى الإشـباع الفـوريّ في الحاضـر (Immediate Gratification) مـن دون التّفكيـر في تداعيـات الأمـور المسـتقبليّة، وقـد سـمّاها بأخـلاق هوليـوود، كونها المروّجـة الأولى لهـذه الثّقافـة»[5].

كذلـك، يُبيّـن أنَّ الإنسـان، حينمـا ركَّـز على هَـوَسِ المادّيّات وإشـباع الأهـواء، أصبح معـزولًا عـن كيانـه وهدفـه، «فـكان الإشـباع الفـوريّ هـو الغايـة بحـدِّ ذاتهـا»[6]. ويصـف

1- cf., Rikus Van Eeden, Levinas's Political Chiasmi: Otherwise than Being as a Response to Liberalism and Fascism, p. 10.

2- Richard Weaver, Ideas Have Consequences, p. 113.

3- Ibid.

4- J.F. Johnston, C.E.M. Joad, Richard Weaver and the Decline of Western Civilization, p. 231.

5- Ibid.

6- Ibid.

هـذا الفكـر بخطـابٍ حـادٍ يُسـمّيه «عقيـدة الآنيّـة الشّـاذّة (Cult of Presentism)»[1]، ويعدّهـا «صفـة مـن صفـات البربريّـة الذيـن يرفضـون توظيـف عقولهم ولا يسـعون سـوى إلى القـوّة والرّاحـة المادّيّـة»[2]. ويمكـن قـراءة هـذه الظّاهـرة الشّـائعة انطلاقًـا ممّـا نبع عن الحداثـة التـي قدَّمـت نفسـها بديـلًا عـن ممنوعـات الدّيـن، فلـم يبـقَ معنـى لانتظـار وعـود السّـعادة المؤجَّلـة؛ أي إذا كانـت اللّـذّة متاحـة أمـام الشّـخص فـي الحاضـر فمـا الهـدف مـن حرمانـه منهـا؟ فبـدل الانتظـار، يسـتحضرها الآن، انطلاقًـا مِـنَ النّزعـة الإنسـانويّة «أنـا سـيّد نفسـي».

وهنـا لا بُـدَّ مِـنَ الإشـارة إلـى أنَّ المشـكلة ليسـت فـي سـعي الإنسـان إلـى السّـعادة أو اسـتمتاعه بالملـذّات، فليـس المطلـوب أنْ يعيـش التّعاسـة والقلـق والتّعـب بسـبب بذلـه للجهـد، لكـنَّ العبـرة فـي ترتيـب أولويّاتـه، وامتـلاك الوعـي الكافـي لتحديـد مـا إنْ كانـت أفعالـه فعـلًا تسـير فـي مصلحتـه أم لا. فهـل كلّ سـعادة يسـعى إلـى تحقيقهـا تسـاعده علـى التّكامـل وتحقيـق ذاتـه؟ أم أنّهـا يمكـن أنْ تكـون سـببًا فـي هبوطـه وتعاسـته علـى المـدى البعيـد؟ فكـم مـن لـذّة آنيّـة أورثـت ندمًـا طويـلًا. إذًا، السّـعي وراء اللّـذّة الآنيّـة ـ فـي رؤيـة «ويفـر» ـ «يجـرّ المجتمـع إلـى مسـار انحطـاط أخلاقـيّ وثقافـيّ، بحيـث لا يعـود بإمكاننـا تمييـز الشّـرّ»[3].

هـذا الموضـوع ليـس مرتبطًـا فقـط بالفضائـل والرّذائـل الدّينيّـة؛ بـل أيضًـا يسـري فـي أبسـط تفاصيـل الحيـاة العمليّـة، علـى سـبيل المثـال فـي مـن يُفضّـل الرّاحـة عوضًـا عـن النّهـوض للاسـتحمام؛ وتاليًـا، إنَّ هـذا الرّكـون إلـى الارتيـاح ـ الـذي يُعـدّ لـذّة آنيّـة ـ عاقبتـه البقـاء علـى وضعيّـة عـدم النّظافـة. والمعـروف أيضًـا أنَّ النّجـاح فـي الدّراسـة يحتـاج إلـى بـذلِ مجهـودٍ كبيـر، إلّا أنَّ حسـن العاقبـة تكمـن فـي الرّقـيِّ العلمـيّ وتحصيل الشّـهادة والدّخـول فـي سـوق العمـل والتّطـوّر الذّاتـيّ وتوظيـف القـدرات المكتسَـبة لصـلاح المجتمـع، وغيرهـا مِـنَ العواقـب الإيجابيّـة التـي تسـتحقّ بـذل الجهـد والحرمان مِـنَ اللّـذّة؛ حتّـى أنَّ الإنسـان يصـل إلـى مرحلـة يسـتمتع فيهـا بالجهـد المبـذول، فتصبـح بحـدِّ ذاتهـا مصـدر سـعادة لـه. وهُنـا يسـتحضر كلام «إيمانويـل كانـط» (Immanuel

1- Richard Weaver, Visions of Order: The Cultural Crisis of Our Time, p. 48.

2- J.F. Johnston, C.E.M. Joad, Richard Weaver and the Decline of Western Civilization, op.cit., p. 232.

3- Ibid.

Kant) الذي يرى في «الانضباط عمليّة أَنْسَنَة، ومن دونها يكون الإنسان في حالةِ توحُّش»[1].

وفي سياق الكلام عن أهمّيّة المرجعيّة الإلهيّة وضرورة الالتزام بتهذيب النّفس، تظهر فضيلة جوهريّة منتشرة في كتابات «ويفر»، وهي «التقوى» (Piety)؛ إذ يتكلّم عن الأخلاق الغربيّة الماضية قبل تحوّلها الجذريّ، ويُعطي نموذجًا المجتمع الجنوبيّ الأميركيّ في الفترة السّابقة للحروب العالميّة التي دمَّرت التّراث المحافِظ، وغيّبت فضيلة التّقوى المركزيّة في ثقافة المجتمع الجنوبيّ. ويُفسِّر مفهومه للتّقوى أنَّها «تنبثق من المصطلح الرّومانيّ (Pietas)؛ فقد كان الاحترام سائدًا للطّبيعة والعائلة والأجداد والتّقاليد والآلهة».[2] من هنا، يُعرّف التّقوى بأنّها «تأديبُ الإرادة من خلال الاحترام، بمعنى أنّها تُعطي الحقّ لعناصر خارج «الأنا» وأكبر منها بأنْ تنوجد، وأوّلها الإله»[3].

لذلك، وصف «ويفر» حنينه إلى المجتمع الأميركيّ القديم؛ حيث كان الإنسان مُدركًا لأهمّيّة الانضباط والمرور بالصّعوبات كي تصقل خشونته، وحيث كان الرّجل الفاضل هو العالِم بامتيازاته وحقوقه، بالإضافة إلى واجباته تُجاه نفسه وعائلته ومجتمعه؛ أي أنَّه ذلك الذي يمتلك مسؤوليّات مُعيّنة يجب أن تُنفَّذ. وكذا حال «المرأة الفاضلة، التي تلتزم بالاحتشام واللّياقة (Propriety)، فمِن علامات غياب التّقوى عند «ويفر» فقدان النّساء لهذه المعايير؛ لتصبح -على حدّ تعبيره- فحشًا أو خلاعة (Obscenity). من هنا، يُعبّر عن استيائه مِنَ المجتمع الأميركيّ الحاليّ؛ حيث هُجر مفهوم الشّرف وأصبحت الخصوصيّات مفضوحة»[4]. ولذلك، شدَّد على فضيلة التّقوى التي تستلزم، أوّلًا، «احترام وصايا الله التي عندما تُنسى يصبح المواطنون مدلّلين ومتعجرفين وعديمي التّقوى. هذه

1- راجع، إيمانويل كانط، تأملات في التربية، ص 13.

2- J.F. Johnston, C.E.M. Joad, Richard Weaver and the Decline of Western Civilization, p. 232.

3- Richard Weaver, Ideas Have Consequences, p. 172.

4- cf., J.F. Johnston, C.E.M. Joad, Richard Weaver and the Decline of Western Civilization, op.cit., p. 233.

الحالة في نظر «ويفر» هي حالة السّقوط»[1].

ثمّ ينتقل في تشديده إلى احترام الماضي وتراث الأجداد، فقد عَدّهما من إشارات التّقوى الأساسيّة؛ لأنَّ التّقاليد ـ بالنّسبة إليه ـ تربطنا بأسلافنا، وتلهمنا لتمرير تراثنا إلى الأحفاد. فعندما نخلو مِن احترام الماضي، لا يبقى ثمّة شيء لنقدّمه للمستقبل؛ إذ يصبح مجتمعًا غارقًا في الحاضر؛ أي الانشغال فقط بالسّعادة الآنيّة. كما أنّه ينسب «التّدهور الثّقافيّ للفشل في تعليم التّاريخ، فبسبب نسيان التّراث يبقى المجتمع من دون ذاكرة تاريخيّة، وتاليًا لا يمكن أن يُكوِّن ثقافة أو نظامًا أخلاقيًّا. فالجهل بالتّاريخ قادر على تدمير حضارة بشكل شامل»[2].

في الختام، لا بُدَّ مِنَ الإشارة إلى أنَّ كلًّا مِنَ المؤلّفَين «جود» و«ويفر»، قد تطرّق بعمق إلى الأزمة الأخلاقيّة والمعنويّة في الحضارة الغربيّة، سواء ببُعدها الفلسفيّ أو الاجتماعيّ، من دون معالجة البُعد السّياسيّ أو الاقتصاديّ لسقوطها؛ إذ يجب الأخذ بالحُسبان تاريخ إصدار مؤلَّفاتهما، وقد تطوّرت من بعدها الكثير من الأحداث السّياسيّة الجديدة. ولكن يبقى أنَّ هذه المؤلَّفات أكَّدت تنبّؤات المؤلّفين حول سقوط الحضارة الغربيّة، والذي يرجع سببه إلى الإفلاس الأخلاقيّ بين تورّمٍ للأنا ونزعة الفرديّة وغياب التّقوى، كما مرّ.

خاتمة

لقد عُرضت خلال البحث آراء بعض المفكّرين الغربيّين الذين عبّروا عن موقفهم بلهجةٍ شديدة القسوة تُجاه الواقع الأخلاقيّ والثّقافيّ للحضارة الغربيّة، مع إبداء تشاؤمهم حول مستقبلها بسبب القطيعة مع الدِّين. إذ رأوا أنّ ما شهدته أوروبّا في القرون الماضية لم يكن مُجرَّد أحداث في سياق وظرف تاريخيّ مُعيَّن؛ بل أفكار ذات وجه إيجابيّ لصالح البشريّة ووجه سلبيّ يلوح بدمارها. وتاليًا، فإنَّ الإنقاذ الوحيد لاسترجاع مكانة الإنسان المقدَّسة يكون بمعاودة خطوط الاتّصال بالحضور السّماويّ، وإعادة تبنّي المنظومة الأخلاقيّة القيميّة المتّصلة بالإرشاد الإلهيّ.

بناءً على ذلك، تأتي دعوة صادقة إلى ابتكار مشروع حضاريّ جديد على

1- cf., J.F. Johnston, C.E.M. Joad, Richard Weaver and the Decline of Western Civilization, p. 233.

2- Richard Weaver, Visions of Order: The Cultural Crisis of Our Time, p. 44.

مستوى الكوكب؛ تُشرَّع فيه الأبواب لحوار الحضارات من دون أنْ تكون إحداها متفوّقة على الأخرى، وذلك يستلزم أيضًا أنْ تسلك كلّ حضارة طريق النّقد الذّاتيّ البنّاء أوّلًا، فتقوم بحوار داخليّ مع ذاتها عبر تحديد نقاط قوّتها وضعفها، ثمّ تنطلق لتقديم العون في نهوض حضارات أخرى، وفي المقابل الاستفادة من تجارب تلك الحضارات لإنقاذ نفسها من الغرق. وهذا بحدِّ ذاته يشكّل المشروع الحضاريّ المتكامل الذي يكون محوره كرامة الإنسان.

لذلك، فإنّ النّقد الذّاتيّ الذي يقوم به كبار المفكّرين الغربيّين لحضارتهم، ومراجعة حساباتهم في إقصاء الدّين، هو أوّل خطوة للتّخلّص مِنَ الأزمة الأخلاقيّة والرّوحيّة والمعنويّة السّائدة. وإنَّ خيار العودة إلى الدّين لا يجب أنْ يَتَّخذ شكله المُتطرِّف الذي كان سائدًا في القرون الوسطى؛ حيث كان الإيمان في إطارٍ معلَّب قائم على التّسليم الأعمى والتّلقين الفارغ من المعنى والفهم. فلا النّزعة العلمانيّة المتطرّفة تنفع الإنسان، ولا النّزعة الدّينيّة المتطرّفة بدورها تنفعه؛ بل كلاهما يُفرِغانه من المعنى ويجعلانه في سلك الانحطاط.

إلّا أنَّ السّؤال الأساسيّ يبقى في مدى قدرة الحضارة الغربيّة على الاعتراف بالآخر غير الغربيّ، وفي تجاوز أزماتها الأخلاقيّة التي يرى كثير مِن مفكّري الغرب ومثقّفيه أنّها باتت تُهدِّد وجود الغرب نفسه.

قائمة المصادر والمراجع

المصادر والمراجع باللغة العربيّة

- برمان، موريس، انحطاط الحضارة الأميركيّة، ترجمة حسين الشوفي، ط1، دار المدى للثقافة والنّشر، بيروت، 2010م.
- بندلي، كوستي، إله الإلحاد المعاصر، لا.ط.، منشورات النّور، بيروت، لا تاريخ.
- بولاد، هنري، الإيمان وتحدّي الإلحاد، ط1، دار المشرق، بيروت، 2018م.
- توفلر، ألفن، بناء حضارة جديدة، ترجمة سعد الزهران، ط1، مكتبة الإسكندريّة، القاهرة، 1996م.
- توفلر، ألفن، صدمة المستقبل، ترجمة محمد علي ناصف، ط2، مكتبة الإسكندريّة، القاهرة، 1990م.
- خليفة، إغناطيوس عبده، الإيمان المسيحي وإلحاد اليوم، مجلّة المشرق، المطبعة الكاثوليكيّة، العدد 3، 1969م.
- عون، مشير، نظرات في الفكر الإلحادي الحديث، ط1، دار الهادي، بيروت، 2003م.
- كانط، إيمانويل، تأملات في التربية، ترجمة محمود بن جماعة، ط1، دار محمد علي للنشر، تونس، 2005م.

المصادر والمراجع باللغة الأجنبيّة

- Baggini, Julian, Atheism: A Very Short Introduction, New York, Oxford University Press, 2003.
- Bennett, Oliver, Cultural Pessimism: Narratives of Decline in the Postmodern World, Edinburgh University Press, 2001.
- Berger, Peter, The Desecularization of the World: Resurgent Religion and World Politics, Ethics and Public Policy Center, Washington D.C., Eerdmans Publishing, 1999.
- Berman, Morris, The Reenchantment of the World, Cornell University Press, 2nd Edition, 1998.
- Bullivant, Stephen, Ruse, Michael, The Oxford Handbook of Atheism, Oxford, Oxford University Press, 2013.

- Eeden, Rikus Van, Levinas's Political Chiasmi: Otherwise than Being as a Response to Liberalism and Fascism, Humanism and Antihumanism, Religion, Vol.10, Iss.3, no date.
- Gorski, Philip, David Kyuman Kim, The Post Secular in Question: Religion in Contemporary Society, New York University Press, 2012.
- Heidegger, Martin, The Question concerning Technology and Other Essays, London, Garland Publishing, 1977.
- Herman, Arthur, The Idea of Decline in Western History, New York, Simon and Schuster, 2007.
- Johnston, J.F. & Joad, C.E.M., Richard Weaver and the Decline of Western Civilization, Wilmington, Modern Age Journal, Vol 44., Iss.3., 2008.
- Levinas, Emmanuel, Collected Philosophical Papers, Dordrecht, Martinus Nijhoff Publishers, 1987.
- Lewis, John, Ideas and Consequences Science & Society, vol. 14, no. 1, 1949.
- Luttwak, Edward, From Homer to the Unabomber: Declinists across the Ages, Foreign Affairs, Vol. 76, No. 1, 1997.
- Minogue, Kenneth, The Appeal of Decline (Review of The Idea of Decline in Western History by Arthur Herman), The National Interest, No. 48, 1997.
- Roberts, Rebecca, Women: Our History, London, Smithsonian DK publishing, 2019.
- Weaver, Richard, Ideas Have Consequences, Chicago, The University of Chicago Press, 1948.
- Weaver, Richard, Visions of Order: The Cultural Crisis of Our Time, Wilmington, Intercollegiate Studies Institute, 1995.
- Wuthnow, Robert, Studying Religion: Making it Sociological, Cambridge, Cambridge University Press, 2003.